العلية المبادئ الاساسية والحلول المقترحة

الباحث :حسين ناجي عيسى أ. م. د. باقر ابراهيم حسين

جامعة واسط / كلية الآداب / قسم الفلسفة

تاريخ الاستلام : 2020/12/8

تاريخ القبول : 2020/10/21

الملخص:

ينتمي كل من الفيلسوفين ديفيدهيوم وبرتراند رسل إلى التيار التجريبي، ومن المعلوم أن التراث الفلسفي التجريبي يمثل أهم ملامح الفلسفة الإنكليزية، ابتداء من (فرنسيس بيكون)، مروراً بـ (جون لوك)، و(بركلي)، فهما – هيوم ، ورسل – يشتركان في أنهما فيلسوفان تجريبيان جعلا الحواس مصدر المعرفة . وكان مفهوم العلية هو المشكلة الكبيرة التي واجهتهم وواجهت المذهب التجريبي عموما ، لذا لا يمكن أن يُؤخذ هذا المفهوم بمعزل عن السياق الكلي لفلسفة كلا الفيلسوفين؛ بمعنى أن هناك مبادئ أساسية تؤطر فلسفتهما، بشكل عام هي التي قادتهما الى طرح حلول محددة حول مفهوم العلية. وسيحاول هذا البحث تسليط الضوء على كل جوانب هذه المشكلة عند كلا الفيلسوفين .

الكلمات المفتاحية للبحث :

العلية – برتراند رسل – ديفيد هيوم – الاحتمال – الاستقراء – التجربة – الخبرة

MA. Hussain Naji Aisa Assistant Professor Dr. Baqar Abraheem Hussain

Wasit University College of Arts Department of philosophy

Receipt date: 21/10/2020
Date of acceptance: 8/12/2020

Abstract:

Both philosophers David Hume and Bertrand Russell deal with the concept of the causality in its many aspects, and this concept cannot be taken in isolation from the overall context of the philosophy of both philosophers. In the sense that there are basic principles that frame their philosophy, in general they are what led them to these conclusions about the concept of the causality

Hume, the extreme experimentalist, is not expected to accept a concept like the causality as a pre-experimental mental concept. The philosophical framework in which he moves cannot lead to such a result, and the same is true for Russell

This research attempts to deal with this problem.

Key words:

Causality - Bertrand Russell - Hume - induction - experience -

المقدَّمة

المبحث الاول

– المرتكزات الأساسية لمفهوم العلية –

المعرفة ووجود العالم الخارجي

تناول كل من هيوم ورسل مفهوم العلية من جوانبها المتعددة، و لا يمكن أن يُؤخذ هذا المفهوم بمعزل عن السياق الكلي لفلسفة كلا الفيلسوفين؛ بمعنى أن هناك مبادئ أساسية تؤطر فلسفتهما، بشكل عام هي التي قادتهما الى هذه النتائج حول مفهوم العلية.

فهيوم التجريبي المتطرف، لا يُتوقع منه ان يقبل مفهوم مثل العلية كمفهوم عقلي سابق على التجربة. إن الاطار الفلسفي الذي يتحرك فيه لا يمكن أن يفضي الى هكذا نتيجة ، والامر كذلك بالنسبة لرسل .

إذا كانت نظرية المعرفة لكلا الفيلسوفين تقوم على مبادئ التجربة، والخبرة فإنها لم تمنعهما من أثارة اسئلة عميقة حول طبيعة (الموضوع) أو (العالم الخارجي) الذي تستمد منه الحواس معطياتها، وهنا نرى كمون مفهوم العلية خلف كل هذه الآراء ، إذ الامر برمته يتعلق بـ (السبب والنتيجة) (الاثر والمؤثر) (العلة والمعلول) من هو العلة ومن هو المعلول؟. من هذا الباب يندرج بحثنا الاتي عن المعرفة ووجود العالم الخارجي عند كلا الفيلسوفين.

ينتمي كل من الفيلسوفين هيوم ورسل إلى التيار التجريبي، ومن المعلوم أن التراث الفلسفي التجريبي يمثل أهم ملامح الفلسفة الإنكليزية، ابتداء من (فرنسيس بيكون)، مروراً بـ (جون لوك)، و(بركلي)، فهما – هيوم ، ورسل – يشتركان في أنهما فيلسوفان تجريبيان جعلا الحواس مصدر المعرفة، فقد رفض هيوم أي مساعدة للحواس من قبل العقل، وهذا ما سَيُهدد كل المعرفة الإنسانية، وهذا ما دعا رسل للقول: "إن فلسفة هيوم سواء أ كانت حقا أم باطلا، تمثل إفلاس حصافة القرن الثامن عشر، فهو يبدأ مثل (لوك)، ومقصده أن يكون حسيا و تجريبيا، لا يأخذ أي شيء مأخذ ثقة بل يسعى إلى أية معلومات كانت يحصل عليها من التجربة والملاحظة، ولكن لما كان لديه ذكاء أفضل مما لدى لوك، وكانت حدة ذهنه في التحليل أعظم، وكانت قدرته على تقبل التضاربات المريحة أضأل، فقد توصل إلى نتيجة كارثية، وهي أنه من التجربة والملاحظة لا شيء يُتعلم، وليس هناك شيء من قبيل الاعتقاد المعقول"(رسل 2012،ص234)، فهو القائل: "لا أحد باستثناء أحمق أو مجنون سيدّعي منازعة مرجعية الخبرة، أو رفض هذا المرشد الكبير للحياة البشرية"(هيوم 2008،ص62)، وإن تأثير هيوم لم يقتصر على وقته، بل

استمر من بعده حيث يقول رسل: " إن نمو اللاعقل في غضون القرن التاسع عشر ، وما جرى في القرن العشرين هو التتمية الطبيعية لهدم هيوم للتجريبية"(رسل 2012ص234).

في حين نجد أن رسل قد جعل للعقل دوراً بجانب الحواس لكي لا يقع فيما وقع فيه هيوم، وقد وصف هيوم "بأنه وصل بفلسفة لوك وبركلي التجريبية إلى نتيجتها المنطقية، وإذ جعلها متسقة مع ذاتها، فأنه جعلها غير قابلة للتصديق، وهو يمثل بمعنى معين نهاية ميتة، ففي اتجاهه من المستحيل المضي إلى أبعد مما وصل إليه"(رسل 2012،219) . وحين نقول هنا: إن هيوم رفض أن يعترف للعقل بدور في عملية المعرفة، فإنما المقصود هنا هو العقل الجوهراني القائم بذاته، غير المحتاج لأي عون من الحواس، أو الخبرة، كي يُنشئ المعرفة، بل هو بذاته قادر على إنتاج المعرفة، وبصفته هذه يكون جوهراً عقليا، في حين أن رسل يحاول أن يخفف من غلواء هذه التجريبية، لاسيما بعد أن تعمقت مباحث الوعي، وتشكله، ودوره في عملية المعرفة إلى درجة كبيرة، وبالأخص مع بداية القرن العشرين مع تطور علم النفس وعلوم اللغة وتعمق مباحث الوعي في الفلسفة .

هيوم انتزع النتيجة المنطقية اللازمة من فلسفة بركلي، ألا وهي الشك، لكن بركلي لم يكن يُريد أن يصل بمذهبه المثالي إلى الشك، بل أراد تجنبه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأراد أن يُخلّص الله، والعقل من معول الهدم المادي، لكن كانت مقدماته ستؤدي إلى ما لا يُريد من حيث يشعر، أو لا يشعر، فبإنكاره للمادة كان يؤسس لأنكار العالم الروحي، فإذا كنّا عاجزين عن معرفة كل شيء إلا ما تدركه الحواس فإن العقل ليس مما تدركه الحواس، هذه هي النتيجة المنطقية للمذهب التجريبي، التي وصل إليها هيوم وجعلها أساسا لفلسفته.

لقد كان (بركلي) يرى أن حقائق الأشياء الخارجية ما هي إلا الصفات التي ندركها عنها بحواسنا، وليس هناك جواهر وراء هذه الأشياء، وما دامت هذه الصفات من خلق عقولنا، فما الأشياء الخارجية إلا وهم وخرافة، وقد أخذ هيوم بهذا القول، وجعل العقل أيضاً وهم، وإن التجربة هي المصدر الوحيد الذي نُحصل منه معارفنا، وإن التجربة هذه لا تكشف لنا عن جوهر مادي، أو عقلي، بل إن كل ما تقدمه لنا التجربة هو مجموعة أحساسات، سواء أكانت خارجية أم أحاسيس داخلية من بواطننا، وما دامت كل أفكارنا نتاجاً لما تدركه حواسنا، فمن المستحيل أن نقبل أفكاراً عن أشياء لا تدركها حواسنا(زكي نجيب محمود ،1939ص232-233).

قد رفض هيوم أن تكون في العقل معارف فطرية، ورفض الميتافيزيقا، وكل المفاهيم العقلية التي ليس لها مقابل في الواقع، لكن من المعروف أن رفض بركلي لم يكن من أجل الانتصار للعلم، ودفاعا عن التجريبية بذاتها، بل هو اتخذها وسيلة من أجل

غاية أكثر إيغالاً في الميتافيزيقا، فهو هنا لا تعنيه الحقيقة الواقعية التي يحاول العلماء والفلاسفة أن يصفوها– ومن ضمنهم هيوم – بل ما يعنيه من المذهب الحسي أنه أعطاه أساساً فلسفيا للتشكيك بوجود الجوهر المادي، انتصارا لجوهر آخر، ألا وهو الجوهر العقلي.

وحين نصادف بعد قرنين من الزمن سواء عند (فتجنشتاين الأول)*، أو عند الوضعية المنطقية، ما يشابه هذا الرفض، فيجب ألّا يغيب عن بالنا الفارق الكبير بين الرأيين، فالوضعية المنطقية، ومن سار في مسارها إنما ترفض أي مفهوم ما لم يكن في الخبرة أولاً، من أجل مزيد من الصرامة العلمية، والتشدد المنهجي، وليس من أجل غاية ميتافيزيقية كما كان بركلي يريد من وراء طرحه.

يرى هيوم أننا إذا أقمنا الدليل على أن الآثار الحسية سابقة على الأفكار، وعلى استحالت الأفكار من دون آثار حسية، عندها نكون قد أجبنا على مشكلة الأفكار الفطرية، التي كثر حولها الجدل، فما دام أن الأفكار تابعة للآثار الحسية وأن هذه الآثار موجودة في تجاربنا اليومية، إذاً فليس هناك أي أفكار مفطور عليها العقل منذ الولادة(زكي نجيب محمود 1939،ص235).

نُريد أن نسأل هنا: على ماذا استند هيوم، عندما جعل التجربة هي أساس المعرفة؟، فإن كان قد استند على العقل، فقد أصبح فيلسوفا عقليا، وأصبحت التجربة من المبادئ التي يقول بها العقل، لكن هيوم ليس فيلسوفا عقليا، وإن كان قد استند على التجربة، فعلى ماذا استندت التجربة الأولى؟، هل استندت على تجربة أخرى؟، وماذا عن التجربة الأخيرة؟، فهل سنسير إلى ما لا نهاية أم ماذا؟.

لقد كان رسل مقتنع بكثير من الآراء التي قال بها هيوم في نظرية المعرفة؛ لهذا لا نرى هناك اعتراضات كثيره في كتاباته على آراء هيوم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان رسل يريد أن يتجنب المأزق الذي وصل إليه هيوم فيقول: "ليس في وسعي إلا أن آمل إمكان اكتشاف مذهب أقل شكية من مذهب هيوم"(رسل ،2012ص219).

ربما نستطيع القول ان هيوم لم يكن يرغب بالوصول إلى النتيجة التي وصل إليها، ولكنه لم يُرد لعقله أن تُسيّره الأهواء و الرغبات، فعندما اراد إيجاد حل للتخلص من الشك، لم يخالف منهجه، بل جاء بمهرب من الشك حيث : إن هذا الشك بالنسبة إلى الحواس والعقل معاً، هو داء لا نقدر على البراء منه براءً أساسيا، فهو لا بد أن يعاودنا في كل لحظة، وإن كنا قد نبعده عنا، وقد يبدو أحيانا أننا تخلصنا منه تخلصا تاماً، إن الإهمال، وعدم الاهتمام يمكنهما أن يزودانا بدواء، لذلك فأنا أركن إليهما ركونا

تاما، و اقوم بأخذهما كقضية مسلمة، إنه مهما يكن رأي القارء في هذه اللحظة، فإنه بعد ساعة منها سيكون على قناعة بأن هنالك عالما خارجيا، وباطنيا معاً(رسل2012، ص233).

إن رسل، ومن قبله هيوم، وغيره الكثير من الفلاسفة رددوا سؤال الفلسفة الأصعب، وهو هل أن وجود الأشياء الخارجية وجود حقيقي مستقل، أم أن وجودها يعتمد على من يقوم بإدراكها؟، وهل الذي يقوم بإدراكها سواء كان عقل أو وعي، له دور في تشكيلها، وإضفاء صفات عليها؟؛ أي بمعنى آخر هل يتدخل في إضفاء الصورة النهائية عليها؟.

بالنسبة لهيوم هذا وهم خاطئ، فإن الحواس لا تقدم إلينا إلا أدراكا حاضرا، فأنا أرى مكتبي الأن، ثم أخرج من غرفتي، وأعود لها بعد فترة فأشاهد مكتبي ثانية، لكن ما أدراني إن كان المكتب موجوداً أم لا أثناء غيابي، فإن حواسي لم تستطع أخباري بذلك، كذلك ما أدراني أن هذا المكتب الذي أراه الأن، هو نفسه الذي كان في غرفتي قبل أن أخرج؟، ويجيب هيوم أنها العادة هي التي جعلتني أعتقد أن المكتب هذا هو نفسه ذاك، لكن لو حللت الحالة لم تكن لدي إلا صورتان لمكتب ليس لدي حجة عقلية للربط بينهما، لكن الخيال الخادع هو من ربط بين الصورتين(زكي 1939،ص141).

وقد تحدث رسل عن هذه الحالة نفسها، فهو يرى أن في حياتنا العادية نرى الأشياء المادية، ونعتقد أنها حقيقة، ولكن بعد الفحص الدقيق تبدأ الصعوبات بالظهور، فلو نظرنا إلى منضده ذات لون بني، لوجدنا درجة لونها تختلف من مكان إلى آخر، حسب الضوء الساقط عليها، وحسب شدته، وبحسب الناظر، ولو كان هناك أكثر من شخص لتعددت الألوان بتعدد الأشخاص، وليس لدينا سبب لأن نعتبر أن هذا اللون هو الحقيقي دون غيره من الألوان التي يراها الآخرون، وهذا لا يقتصر على اللون، بل الشكل والملمس، والصوت المتولد عند الطرق عليها، وهنا يجب أن نميز بين المنضدة في الظاهر، والمنضدة في الواقع، لكن لو نظرنا إلى المنضدة بالمجهر لوجدناها تختلف عن رؤيتنا لها بالعين المجردة، ولقلنا: إن ما شاهدناه بالمجهر هو الواقع، ولو أتينا بمجهر أكثر دقة، لكانت الصورة مختلفة، إذاً أيهما الواقع وأيهم الظاهر؟(رسل ، 2016 ص9-12).

وهنا نجد رسل، وكأنه يردد مقولة كانت حول (الشيء بذاته) الذي لا يمكن أن ندركه، وذلك من خلال تعداد الإمكانات الكثيرة لصور الأشياء في الخارج، حسب الشخص المُدرِك، وطبيعة ظروف الإدراك الفيزيائية، وطبيعة الأدوات المستخدمة في رصد الأشياء، وهو بهذه الأسئلة يُريد أن يُبرز لنا تعقد المشكلة، وتشابكها، وانفتاحها على الاحتمالات الكثيرة، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فهي تمثل تجاوزاً لشكية هيوم المميتة، والتي لم تكن تفضي إلى شيء.

لقد أرجع رسل المعرفة إلى الحس، لكنه بدأ شاكا بها، هو لم يشك بأنها أصل المعرفة، لكنه يشك في هل ما تنقله لنا الحواس مطابق للعالم الخارجي أم مخالفا له؟، فقد ميز رسل بين (الشيء المادي)، الذي هو الموضوع المُدرك، بمعزل عن إدراكنا له، وبين (الحقائق الحسية)، وهي ما يصل إلينا من الشيء المادي، عبر القنوات الحسية، كاللون، والملمس، والطعم، والرائحة، والصوت، فنحن كل ما نعرفه هو هذه الحقائق الحسية، أما الشيء بذاته فلا نعرفه، إلا بواسطة هذه الحقائق الحسية، وقد سمى رسل هذه المعرفة بـ (المعرفة الوصفية).

وبحسب رسل فإن ما نعرفه عن الشيء المادي هو من صناعة الحواس، والذهن الإنساني، فالأصوات، والروائح، والألوان، والطعوم غير موجودة في الواقع الخارجي، فما هي إلا ذبذبات، أو موجات تصل للذهن عن طريق الحواس، فتتم صناعتها في الذهن، وهذا قريب مما ذهب إليه (كانت).

ومن المعروف أن هيوم قد جعل (الانطباعات) هي كل ما لدينا عن العالم الخارجي، وكل الأفكار ما هي إلا نتاج للانطباعات سواء أكانت البسيطة منها أم المركبة، لكن في هذه الحالة كيف نعرف إن كان الموجود الموضوعي مطابقا لانطباعنا عنه أم لا؟، فنحن لا نملك إلا الانطباع، ولم نخرج من ذواتنا لنشاهد إن كان الموضوع كالانطباع أم مخالفاً له، هذا أمر، والأمر الثاني هو كيف نعرف أن كان هناك موضوع موجود في الخارج أم لا؟، كيف نعرف بوجود الموضوعات ما دام ليس لدينا إلا انطباعات قاطنة في الذهن فقط؟.

أليس من حقنا هنا أن نستنتج من ربط هيوم معارفنا بالانطباعات فقط بأن هيوم كان مثالياً كـ (بركلي)، لانه قد جعل كل ما نعرف موجوداً في أذهاننا فقط وليس في الخارج.

ألا يمكن القول: إن هيوم الفيلسوف التجريبي، ذو نزعة مثالية، وإذا كانت المثالية تعني –الذاتية– إنكار استقلال الموضوعات الخارجية، والتشكيك فيها، وإعطاء فاعلية أكبر للذات في عملية الإدراك. لكن على ضوء الكثير من التصنيفات الفلسفية المألوفة، فإن هيوم لا يمكن إدراجه ضمن الفلاسفة المثاليين، فهو لم ينكر صراحةً وجود الموضوعات المادية، وأرجع كل معارفنا للتجربة والحس.

في الحقيقة لم يصرح هيوم بكل ما قلناه، لكن سواء أكان يقصد أم لا يقصد، فإن حصر معرفتنا بالانطباعات يضطرنا إلى الوصول إلى هذه النتيجة.

لم يحاول هيوم البرهنة على وجود العالم الخارجي، ربما لأنه لم يلتفت إلى ما جناهُ من حصر المعرفة بالانطباعات، فجعل الوجود الخارجي غير معروف، على العكس من رسل، فقد عمل على إثبات وجود العالم الخارجي، أو على الأقل لم يطلق العنان لشكوكه، التي كان الكثير من شرحه، وتقديمه لطرق تَشكل المعرفة تساعده على القيام بذلك.

يأتينا رسل بحجتين؛ ليثبت لنا أن الوقائع المادية موجودة، حتى لو لم ندركها إدراكا مباشرا، ففي مثالنا السابق عن المنضدة لو وضعنا قطعة قماش كبيرة على المنضدة، بحيث تُغطيها بكاملها، عندها سوف لن تكون لدينا حقائق حسية، لكن نرى قطعة القماش معلقة، فهل هي معلقة بسبب معجزة ولم يرفعها شيء ؟، بل لأنها على المنضدة، فالمنضدة موجودة على الرغم من عدم رؤيتنا لها.

أما الحجة الثانية فتعتمد على الأشخاص الآخرين المُدرِكين للحقائق الحسية للمنضدة، فلو أتينا بعشرة أشخاص، وجعلناهم ينظرون إلى المنضدة، فسوف يحصلون على حقائق حسية عن المنضدة، وستكون هذه الحقائق مختلفة بعض الشيء فيما بينهم، وهذا الاختلاف يتبع قوانين المنظور، ولكن ما هو متشابه بينهم يكون أكبر، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن هناك وراء الحقائق الحسية شيء ثابت، وهو السبب فيما يراه الأشخاص جميعهم، وإلا لماذا اتفق الجميع على رؤيتهم لهذه الحقائق؟(رسل .2016 ص24-25).

إن حجة رسل الأولى من وجهة نظر فلسفة هيوم غير مقبولة، إذا أتخذنا منهج هيوم في التعامل معها، صحيح نحن نرى قطعة القماش مرتفعة، لكن لا نستطيع أن نبرهن على أن ما يرفعها عن الأرض هو المنضدة، فنحن لم نرَ المنضدة، فكيف نحكم بوجودها؟.

بعد هذا الاختلاف بين الاشخاص حول رؤيتهم للمنضدة، بل والاختلاف عند الشخص الواحد، عندما ينظر للمنضدة من أماكن مختلفة، وأضواء مختلفة، –بعد هذا – ألا يمكننا التساؤل إن كانت هناك منضدة في الواقع أم لا؟، ولنعمم السؤال : هل هناك شيء مادي موجود في الواقع؟، وإذا كان الجواب نعم، فأيٍ من هذه الصور المختلفة التي نشاهدها هي الواقع؟، وهذا ما يُرجعنا لـ(بركلي) مرةً أخرى حين أنكر وجود الأشياء المادية، وقال: ما هي إلا صور موجودة في عقول الناس بمقولته: (الموجود هو المدرك)، ولكن ماذا لو أغمضنا أعيننا عما كنا ننظر إليه، هل سيُنعدم ؟، (بركلي) وجد مخرجا لهذا المأزق، وهو أن الأشياء موجودة في عقل الله، حتى لو لم يدركها عقل الأنسان، فهي موجودة، وإن الله هو من يجعل هذه الصور في أذهاننا، فتحصل عملية الإدراك.

وهناك أمر مهم يجب الالتفات إليه، وهو اعتراف هيوم بعدم قدرته على معرفة أسباب أو مصادر الانطباعات، فهو لا يعرف من أين تأتي؟، هل من الشيء المُدرَك، أم من إنتاج الذهن، أم أن خالق الكون – حسب تعبيره –جعلها في أذهاننا؟، حيث نستمع له يقول: "بالنسبة لتلك الانطباعات، التي تنشأ من الحواس، فإن سببها النهائي برأيي غير قابل للشرح من قبل العقل البشري، ولسوف يكون من المستحيل دائما أن نبت بصورة يقينية ما إذا كانت تنشأ مباشرة من الشيء، أو هي نتاج القدرة الخلاقة للذهن، أو هي مستمدة من خالق كوننا"(هيوم 2008– ص105). وهنا نريد أن نقول: إن هيوم جعل اللبنة الأولى التي تقوم عليها معرفتنا هي (الانطباعات)، وعليها بنى نظريته كلها في المعرفة، وناقش العلية، ورفضها على هذا الأساس، بل وجعل الانطباعات مقياس وجود ما يوجد، وعدم وجود ما لا يوجد، ألا يحق لنا أن نشك بكل ما بناه هيوم في المعرفة، ما دامت اللبنة الأولى غير معروفة المنشئ، كيف نستند على الانطباعات، ونحن لا نعرف من أين جاءت، وكيف جاءت، أليس لنا الحق بالشك بكل ما جاء به هيوم قائم على الانطباعات؟، بل أليس لنا الحق بنبذ كل ما يعتمد على الانطباعات عنده؟ ، لكن هيوم صحيح انه لم يعرف مصدر الانطباعات، لكنه لا يشك بوجودها، فالانطباعات يقينية لديه، ولذلك فهو يبني معرفتنا عليها.

لو ركزنا على قوله: بأنه لا يعرف إن كانت قد جاءت من خالق الكون، ففي هذه الحالة، ما الفرق بينه وبين (بركلي) الذي جعل الله مصدر لكل أفكارنا، فهو الذي يوجدها في أذهاننا، وليس هناك شيء خارج أذهاننا، وبحصر هيوم المعرفة بالانطباعات أصبح كـ (بركلي)بقصره المعرفة على الذهن.

ورسل ينتقد قول هيوم: إن الأفكار نسخ مشابهة للانطباعات، لكنها تختلف عنها فقط في درجة القوة، حيث يرى رسل أن هيوم قد أغفل الإبهام الذي يقع في الأفكار، فيجعلها ليس نسخة مطابقة كل التطابق لانطباعاتها، فلو شاهدنا شخص طوله ستة أقدام وبوصة واحدة، فربما فكرتنا عنه ستكون أكثر أو أقل ببوصة واحدة(رسل – 2012ص222).

هناك أمر نرغب بإثارته، وهو قول هيوم بأن الانطباعات سابقة على الأفكار، ولا نقصد أننا ننكر أن الانطباعات سابقة على الأفكار، ولكن هو كيف عرف هيوم أن الانطباعات سابقة على الأفكار، وأن ليس هناك فكرة مالم يكن لها انطباع؟، نعتقد بأن هيوم جاءنا بهذا القول نتيجة للاستقراء، فكيف استطاع أن يعرف أن فكرة القلم نتيجة لصورة القلم، وأن فكرة الكتاب نتيجة لصورة الكتاب، مالم يشاهد في الواقع القلم والكتاب؟، ثم بقيت لديه أفكار عنهما، وهكذا مع الأشياء الأخرى، ثم وصل إلى نتيجة، وهي أن كل هذه الأفكار هي نتائج لانطباعات، وأن الانطباعات يجب أن تكون سابقة لأفكارها، وليس هناك فكرة أن لم يكن هناك انطباع، وفي هذه الحالة فإن هيوم قد استخدم الاستقراء بالعد البسيط، فهو لا يمكنه أن يحصي كل الظواهر، وكما نعلم،

ويعلم هيوم أن الاستقراء بالعد البسيط لا يُوصل إلى نتائج يقينية، بل لا يؤدي إلى احتمال حتى بعد أن أنكر هيوم التكرار والتشابه بين الظواهر، وعلى هذا فسيكون حكم هيوم بأن الانطباعات سابقة للأفكار حكم غير يقيني، بل وحتى غير محتمل.

أما رسل فقد جعل (الشيء المادي) سابق على (الحقائق الحسية)، لكنه يصرح بأن كل ما لدينا هي (الحقائق الحسية)، حيث يقول : " نحن لا نلاحظ شيئاً على الإطلاق عدا ما يدور في رؤوسنا"(رسل فلسفتي –ص45)، لكنه يستدل بدليلين على وجود الأشياء المادية – كما مر معنا في بداية البحث – ، ونعتقد أنه كسلفه هيوم، قد اعتمد على الاستقراء في إثبات الأشياء المادية، لكن ما يشفع له، ويفرقه عن هيوم، أنه لم يرفض نتائج الاستقراء رفضا مطلقا، بل جعلها احتمالية، وكان يبحث دائما عن مسوغ للاستقراء، أو عن بديل ناجح؛ أي لم يُهدم المعرفة كهيوم.

عقبة الاستقراء

أن تكون فيلسوفا تجريبياً، يعني أن تواجه مشكلة الاستقراء، وقد واجهها كلٌ من هيوم ورسل، وكانت النتائج مختلفة؛ لاختلافهم في طريقة معالجة المشكلة.

إن نقطة ضعف الاستقراء، بالنسبة للفلاسفة التجريبين، هي عدم وجود حد وسط يسوغ لنا الانتقال من المشاهدات الجزئية، إلى قانون عام يشمل الجزئيات جميعها، وقد تناول كلٌ من هيوم ورسل هذه السلبية، لكن كلٌ منهم تعاطى معها بشكل يختلف عن الآخر، فهيوم الذي رفض أي مبادئ عقلية، لم يجد هذا الحد المفقود، فبقيت لديه فجوة في العملية الاستقرائية، فهناك فراغ بين القضايا الجزئية، وبين القانون الكلي، لم يجد له هيوم ما يُمليه؛ لذلك اعتبر انتقالنا هذا غير مُبرر، وليس له مسوغ؛ لذلك فلا يمكن قبول هذه القوانين باعتبارها قوانين كلية صادقة، في كل مكان وزمان.

وقد اتفق الاثنان على عدم يقينية النتائج الاستقرائية، في القضايا التجريبية؛ لأن الاستقراء هنا قائم على العد البسيط، فليس بإمكاننا أن نلم بكل الجزئيات المراد تتبعها، ومن ثَمّ لا نستطيع أن نعمم الحكم على الجزئيات التي لم تقع تحت خبرتنا، وبذلك ليس لدينا ما يبرر أن ننشر هذه القوانين على المستقبل، فلو جاءت ظاهرة واحدة لا ينطبق عليها حكمنا لنسفت كل القوانين، ولو استطعنا أن نستقري جميع الجزئيات، لما احتجنا إلى الحد الوسط ، بل استطعنا الانتقال إلى القانون من دون وساطة، لكن هذا الاستقراء لم يعد استقراء بالعد البسيط، بل سيصبح استقراء إحصائي.

ورسل يوافق هيوم إلى حد بعيد، في أن كثرة تكرار وقوع الحوادث ليس دليلاً على أن نفس هذه الحالات ستتكرر في المستقبل، لكن ما اختلف به هيوم عن رسل هو أن هيوم رفض أن يكون هناك تكرار أصلا، فالحوادث لا تتكرر نفسها، بل هذه

حوادث جديدة ليست هي الحوادث التي شاهدناها سابقا، وبذلك فليس هناك فائدة مما نعتقده بأنه تكرار للحوادث، أما رسل فلم يتحدث عن عدم وجود تكرار، لكنه يرى أن التكرار لا يُعطينا يقينية في الأحكام، بل تبقى احتمالية لكن يزداد الاحتمال كلما زاد التكرار.

هيوم حصر المعرفة في القضايا المنطقية، والرياضية من جهة، والقضايا التجريبية من جهة أخرى، ولا يقبل بغيرهما معرفة، فإذا أتينا إلى الاستقراء، فليس هناك برهان منطقي، أو دليل تجريبي، يُثبت صحة منهج الاستقراء، وكأنني به يقول: كيف نستطيع أن نجعل معارفنا أو قوانيننا قائمة على الاستقراء، في الوقت الذي ليس هناك ما يقوم عليه الاستقراء، فلماذا نقبل الاستقراء، ونجعل قوانينه صحيحة؟.

نستطيع القول: إننا سنصل من خلال كل ما قاله هيوم، إلى تعطيل المعرفة، فالذي يتخذ المنهج الذي اتخذه هيوم، لا يستطيع أن يصل إلى نتيجة أو قانون؛ لأننا بحسب هيوم لا نستطيع أن نستفيد من تجاربنا الماضية لنُصيغ منها قانوناً نعممه على المستقبل؛ لأن القوانين قائمة على الاستقراء، والاستقراء لا يوصل إلى أي نتيجة يقينية تماما؛ لأن بالاستقراء نقوم بتكوين القانون من خلال مشاهداتنا للظواهر المتكررة، والمتشابهة، لكن هيوم –وكما بينا أكثر من مرة– لا يؤمن بوجود تكرار للحوادث، ولا حتى تشابه، فكل ظاهرة عنده قائمة بذاتها، لا تتكرر، ولا تشبهها ظاهرة أخرى، ومن ثَمّ فلا فائدة من متابعتنا للظواهر.

وقد أدرك رسل أن السير مع هيوم في منهجه سوف يعدم معرفتنا بالمستقبل تماما، حتى الشمس التي نراها كل يوم، لا نستطيع أن نتنبأ بظهورها في الغد، فأراد رسل لمنهجه أن يكون أقل شكية مما وصل إليه هيوم(رسل ،2012ص229).

لم يقف رسل مكتوف الأيدي أمام هذه المشكلة؛ لأنه أدرك أن عواقبها ستكون وخيمة، فعكف على البحث عن مخرج، أو مسوغ يُتيح لنا الاعتماد على الاستقراء، والحصول على قوانين، ولو احتمالية، فليس من الصحيح أن نهدم أساس المعرفة، ثم لا نبحث عن بديل، فجاءنا رسل بـ (المبدأ الاستقرائي) الذي أرادمن ورائه أن نقبل منهج الاستقراء بالاعتماد عليه، فكأنه جاءنا بالمبدأ بديلا عن التجربة، أو البرهان الذين كان هيوم يبحث عنهما، ليقبل الاستقراء، لكن هيوم لم يُوفّق لإيجاد ما يقوم عليه الاستقراء، ولكن هل وفقَ رسل لإيجاد الحل؟، هذا ما سنعرفه في مناقشتنا للحلول التي جاءنا بها رسل، فقد قدم اولاً (المبدأ الاستقرائي) ثم تخلى عنه، وقَبلَ الاستقراء برجماتياً، ثم قدم حلا آخر من خلال (المصادرات)، فرسل لم يرد ان يبقى في دائرة الشك السلبي كما بقي هيوم، بل قدم مساهمة ايجابية لحل هذه المشكلة الفلسفية والعلمية.

مبدأ الاستقراء

ولنناقش مبدأ الاستقراء عند رسل من وجهة نظر هيوم، صحيح أن هيوم يسبق رسل بقرنين من الزمن، لكن سننظر إلى مبدأ الاستقراء عند رسل بمنظار هيوم التجريبي.

1 – من أين عرف رسل بأن هذا مبدأ قبلي، وليس قانون وضعناه نحن بعد مشاهداتنا المتكررة؟، فبحسب هيوم ليس لدينا معارف إلا ما نحصل عليه بالإدراك الحسي، وإن ما ليس له انطباعات فلا نقبله، وإن كان وضوحه هو الذي جعله يعتبره مبدأ، ولا يحتاج دليلاً، فإن هناك من لم يتفق معه عليه، ولو كان واضحاً لما تخلف عن الإيمان به أحد، فهيوم لم يجد أي مبرر للإيمان به، ولو كان واضحاً لما غفل من رفض الاستقراء عنه، ولو قال رسل: إنه واضح عندي، لقال غيره: إنه غير واضح عندي، فلا تبقى لدى رسل حيلة؛ لأنه يقول: إنه لا يمكن البرهنة عليه.

2 – يقول رسل: إن هذه المبادئ قبلية، لكن التجربة تنبهنا إليها، ولنسأل بلسان هيوم: كيف نعرف أنها سابقة على التجربة إن كانت التجربة هي من نبهتنا إليها، فربما أخذناها من التجربة، والعادة كما يرى هيوم بأن كثرة تكرار الحالات جعلتنا نعتاد على أشياء، ونجعلها قوانين، في حين هي ليست أكثر من حوادث متتابعة.

3 – نرى المبدأ الاستقرائي عند رسل ما هو إلا تجريد للمنهج الاستقرائي، وقد حصلنا عليه من خلال الاستقراء، وفي الحقيقة هو ليس مبدأ، بل هو قانون عام تم وضعه بعد استقراءات متعددة، أو بتعبير آخر بعد تتبع استقراءات عديدة، وبرأي هيوم –كما مر بنا – فإن الاستقراء لا يُعطي نتائج يقينية، بل ولا حتى احتمالية؛ لأنه قائم على تتبع حالات يُعتقد بأنها متكررة أو متشابهة، لكن في الواقع لا هي بالمتكررة، ولا بالمتشابهة، بل حوادث منفصلة غريبة عن بعضها.

4 – ليس عند رسل أي أحكام قطعية، فكل ما نحصل عليه من نتائج هي احتمالية، وحتى في المبدأ الاستقرائي يتحدث عن احتمال، ولا يتحدث عن يقين، ومادام أن كل أحكامنا احتمالية فإن اعتبار المبدأ الاستقرائي، مبدأ يقوم عليه المنهج الاستقرائي هو أمر احتمالي أيضاً، فربما يكون صادقاً، وربما العكس، وحتى وإن نجح في حالات فربما تأتي حالات استقرائية خاطئة.

5 – وفي آخر المطاف يتفق رسل مع هيوم، فيتخلى عن المبدأ الاستقرائي لحساب (الاستقراء البرجماتي)، ولم يعد يتحدث عنه في كتاباته المتأخرة، بل صرح بأن الاستقراء ليس مبدئاً أولياً.

الاستقراء البرجماتي

لقد عرفنا أن هيوم لم يكن يعول على منهج الاستقراء في بناء معرفة يقينية راسخة تتسم بالكلية والشمول، أما رسل فقد قدم لنا أولا المبدأ الاستقرائي؛ ليتغلب على صعوبات المنهج الاستقرائي، لكن رسل لم يقف عند هذا المبدأ فقط، بل راح يبحث عن حل أكثر نجاعة، وأكثر عملية، فجاء برأي جديد وهو قبول الاستقراء برجماتيا، ولم يعد يتكلم عن المبدأ الاستقرائي؛ لأنه وجد أن الاستقراء ليس مبدئا، وهو ليس أكثر من مصادرة ليس لها ما يُثبتها سوى الحقائق الجزئية، أما المستقبل فلا نملك سوى الانتظار، وبهذا سوف لن يختلف مبدأ الاستقراء عن المصادرات التي سيأتي بها مؤخرا.

نجد أن أفضل حل لمشكلة الاستقراء هو القبول به برجماتيا، وهو أفضل حتى من المصادرات التي سيأتي بها رسل لاحقاً، فأفضل طريقة هي قبول الاستقراء ليس باعتباره مبدأ، أو بديهية، أو مصادرة – وكلامنا هنا يخص الفلسفة التجريبية – بل نقبله كمنهج لم نجد بعدُ منهجاً أفضل منه، وبوساطة هذا المنهج نصيغ القوانين استنادا منا على الحوادث المتكررة في الماضي، ونعمم هذا القانون الذي حصلنا عليه من الاستقراء على المستقبل، فإذا جاءت الظواهر المستقبلية مطابقة للقانون نستمر بتصديقنا لهذا القانون وعملنا به، وإن جاءت الوقائع مخالفة له في المستقبل، قمنا بتعديله، أو تركناه، وبحثنا عن قانون أفضل منه، إلى أن نصل إلى قانون لا تخالفه الظواهر، وحتى لو لم نصل إلى هكذا قانون، فسنستمر في اتخاذنا للقوانين التي تُطابق الواقع في ذلك الوقت، فهذا خير من أن نبقى بدون قوانين.

الاحتمال

يرى هيوم أن الاحتمال ينتج من أرجحية المصادفات في أحد الجهات، فكلما تزداد هذه الأرجحية ، يزداد الاحتمال لهذه الجهة، فيوّلد درجة أعلى من الاعتقاد والتصديق، وكلما تكررت مشاهداتنا لظاهرة ما، وهي تنتج ظاهرة أخرى ، كلما ارتفعت درجة احتمال أن المستقبل سيكون شبيه بالماضي ، وأن هذه الظواهر ستنتج نفس الظواهر التي أنتجتها في الماضي، وأن تظافر المشاهدات المختلفة يطبع الفكرة بشدة أقوى في المخيلة ويعطيها نشاطا وقوة أعلى ، ويجعل تأثيرها على الانفعالات والأهواء أقبل لأن يُحس، فيتولد ذلك الاطمئنان، وتلك الثقة الذين هما قوام الاعتقاد، فهناك أسباب مطردة دائما، وثابة في إحداث نفس الأثر، ولم نعثر ولو لمرة واحدة على تخلفها عن إحداث هذا الأثر ، فالنار محرقة دائما ، والماء دائما خانق، وقانون الجاذبية لم يتغير لحد الأن ، وان تعوّدنا على ارتباط هذه الأحداث يجعلنا مصرين على إسقاط الماضي على المستقبل ، وإذا كان الماضي منتظم دائما ومطرد؛ فإن احتمالاتنا للمستقبل ستكون بأعلى الدرجات بل سيصل إلى اليقين ، وسوف لن يكون هناك احتمال معاكس(هيوم –2008 ص88–90).

لكن دعونا نرجع قليلا مع هيوم ، فقد عرفنا ممّا سبق أن علاقة العلية عند هيوم ليست مبدأ قبلي وليست ضرورية، بل هي تصور قد جاء من الخبرة بفعل العادة، والتكرار الذي أدى بنا للاعتقاد بضرورة هذه العلاقة، لكن في الحقيقة هي ليست ضرورية؛ لأنها مستخلصة من الواقع التجريبي ، وان قضايا الواقع ليست يقينية .

وما دمنا لا نملك تجربة عن المستقبل فلا نستطيع أن نعرفه معرفة يقينية، بل أن كل ما نتوقعه عن المستقبل هو مجرد احتمال، فبما أن ليس هناك ضرورة عقلية تحتم أن يكون المستقبل على غرار الماضي ، فتوقعاتنا للمستقبل ستكون احتمالية وليست يقينية .

وهيوم لا يتحدث عن الحياة العادية، ففي حياتنا اليومية نتعامل وكأننا على يقين من قضايا المستقبل ، فالأنسان العادي يجزم دائما بأن الشمس ستشرق غدا ، وأن النار ستبقى دائما محرقة ، والحديد يتمدد بالحرارة ، والخبز يغذي الأنسان ، "ولسوف يظهر مضحكا من يقول : أن من المحتمل فقط ، أن الشمس ستشرق غدا ، وأن كل الناس لابد أن يموتوا ، رغم أن من الواضح أن ليس لدينا أي تأكيد أبعد على هذه الحقائق ممّا قدمت لنا التجربة"(هيوم –2016ص143).

لكن القوانين التي نستنتجها من تجاربنا الماضية ، ستكون احتمالية وليست يقينية؛ لأنها قائمة على خبراتنا الماضية حيث يرى هيوم: إن كانت لنا حجج تجعلنا نضع ثقتنا في خبراتنا الماضية ، ونجعلها قاعدة لحكمنا على المستقبل ، فإن هذه الحجج يجب أن تكون مجرد حجج ترجيحية؛ لأن جميع الحجج المتعلقة بالوجود تقوم على أساس السبب بالأثر(هيوم،2008ص61–62)، ونحن لا نعرف أسباب حدوث الوقائع لأن "الطبيعة قد ابقتنا على مسافة كبرى من أسرارها، وأنها قد أعطتنا فقط معرفة بعض الخاصيات السطحية عن الأشياء"(الاهواني– ص142). بل انه من غير المؤكد لا بالبديهية ولا بالبرهان ، أن لكل شيء سبب(هيوم –2016ص99).

وإذا كان هيوم يرفض أن تكون هناك أي علاقة ضرورية بين العلة والمعلول ، فمن أين لنا الحق بالقول: إن الظاهرة الفلانية ستنتج الظاهرة الفلانية في المستقبل؟، على ماذا نعتمد عندما نقول: إن الحديد سيتمدد بالحرارة، وكيف نجعله قانوناً عاماً يشمل كل قطع الحديد في كل زمان وكل مكان ، وان كل ما نقوم عليه هو أن نقوم بنقل أفكارنا الحالية إلى المستقبل. نعم نحن قد شاهدنا ظواهر قد نتجت منها ظواهر أخرى في الماضي "لكن لماذا سيكون على المعرفة أن تمتد إلى المستقبل"(هيوم 2008ص59)؟. هل لدينا دليل بأن حوادث المستقبل ستكون كالحوادث الماضية ؟ ما الذي جعل الذهن الإنساني يمد معرفته الماضية إلى المستقبل؟، ويجيبنا هيوم بأن "أول ما يمكن ملاحظته من افتراض أن المستقبل يماثل الماضي ، هو أنه لا يقوم

بالأساس على أي حجة من أي نوع ، بل هو مستمد من العادة التي تحتم علينا أن نتوقع بالنسبة للمستقبل ، نفس تسلسل الأشياء التي أعتدنا عليها في الماضي"(هيوم ،2016ص152). و أن كل معارفنا الماضية قائمة على الخبرة الحسية ، على ما نشاهده من تجارب ؛ أي أن كل قضايا هذه الخبرة تجريبية ، وعليه فهي ليست يقينية لأنها يمكن أن نتصور نقيضها ، كما مر علينا سابقا ، فأحكامنا التي نبنيها اعتمادا على خبرتنا الماضية ، نعتمد فيها على أساس التشابه بين الظواهر حيث نحكم على الموضوعات التي نشاهدها الأن والتي لم نشهدها بعد بنفس الحكم الذي أطلقناه على الموضوعات التي خبرناها سابقا، لما نجده من تشابه بين الاثنين حيث يقول هيوم : "تتأسس جميع الحجج المستمدة من الخبرة ، على التشابه الذي نكتشفه بين الأشياء الطبيعية والذي يحملنا على توقع أثار مشابه لتلك التي وجدنا انها تتلي مثل هذه الأشياء"(هيوم2008،ص62).

لكن قد وجدنا هيوم في كلامه عن العلية يرفض أن يكون هناك تشابه بين الظواهر، وأن الظواهر لا تتكرر؛ لأن كل ظاهرة قائمة بذاتها ومنفصلة عن الظواهر الأخرى ، فإن النار التي مددت هذه القطعة من الحديد ، ليست هي نفسها التي مددت قطعة الحديد تلك ، وإن الظواهر التي نعتقد انها متشابهة، وتتكرر في الحدوث ، في الحقيقة لا تزيدنا يقينا ، ولا حتى احتمالا؛ لأنها ليست متشابهة ولا متكررة ، وأن ما نعتقد به من ترابط بين الظواهر ، هو ليس إلا تعاقب بينها ، وليس هناك أي رابطة ضرورية بين الأشياء. وهذا ما جعلنا نعتقد أن هيوم قد سقط من صهوة منهجه، ولم يستطع الاستمرار باعتلائه بعد أن قبل بالاحتمال، وربما قَبِلَ الاحتمال؛ لأنه وجد منهجه لا يوصلنا إلى نتيجة مفيدة ،بل يجعلنا نعيش في تيه ، ولذلك أراد أن يتمسك بحبل الاحتمال عله ينتشلنا من الغرق في بحر الشك والريبة . لكن لا نرى بأن هذا الحبل يستطيع أنجادنا، لأن طرفه الآخر قد ارتبط بالعادة التي هي الأخرى لا تستطيع أن تنقذ نفسها ، فراحت تستند على الاستقراء الذي لا يعترف به هيوم.

إن الاحتمال قائم على أساس الروابط بين الظواهر ، ولكن كما رأينا مع هيوم فإنه لا توجد أي روابط ضرورية بين الأشياء ، وأن فكرة الروابط مجرد خيال قمنا بفرضه على الطبيعة، بسبب العادة والتكرار، ولا شيء غير ذلك .

أما فيما يتعلق بالاحتمال عند رسل، فإن رسل قد بدأ كلامه عن المعرفة بالتساؤل عن إمكانية وجود معرفة يقينية في العالم لا يشك بها أحد، لكن لم يجد ضالته، فهو لم يدعي أبدا إمكانية الوصول إلى معرفة يقينية في العالم التجريبي، وبقية المعرفة احتمالية عنده دائما، منذ قوله بمبدأ الاستقراء حتى وصل إلى القول بالمصادرات، و يختلف رسل عن هيوم بأن هيوم قال بالمعرفة الاحتمالية في الوقت الذي هدم المعرفة، ولم يُبقِ لنا إلا الانطباعات في وقتها، أما رسل فلم يفعل كسلفة، ولذلك فلا

حاجة للتوسع في الكلام عن الاحتمال عنده، والأمر الآخر هو أن كثير من كلام رسل في الاحتمال، يتعلق بالاحتمال المترتب على حوادث معدودة، وهذا لا ينفعنا في البحث عن القوانين التجريبية.

المبحث الثاني :لا يمكن انكار العلية... الحلول المقترحة

لماذا الأيمان بالعلية؟

نحن نعلم أن هيوم و رسل لم يقبلا بعلاقة العلية التي تربط بين الأشياء برابطة ضرورية –السبب والنتيجة – فلا يمكن لأحدهما أن يتخلف عن الثاني، لكن كيف فسرا إيماننا بهذه العلاقة؟، لماذا نربط في حياتنا اليومية بين الأحداث؟، لماذا لا يزال البشر منذ أن وجدوا إلى يومنا هذا يتعاملون وفق هذه العلاقة أو هذه الرابطة؟، لماذا أصبحت لدينا من السهولة بحيث لا نبذل جهدا من أجل التنبؤ بالحوادث التي لم تحدث بعد، بل أصبحت بديهيات أو كالبديهيات؟.

يرى هيوم أن عموم الناس لا يواجهون أي صعوبة في تفسيرهم لأعمال الطبيعة ، مثل سقوط الأجسام أو نمو النباتات، و تغذية الأجسام، و تكاثر الحيوانات، وهم يظنون أنهم يعرفون أسباب كل هذه الظواهر، ويتصورون انهم لا يخطئون أبدا في أحكامهم هذه، ولكنهم لم يكتسبوا هذا ألا بطول العادة(هيوم 2008،ص102).

"التعود إذن هو المرشد العظيم في الحياة البشرية ، إنه المبدأ الأساس الذي يجعل الخبرة مفيدة لنا، وهو وحده الذي يجعلنا نتوقع أحداث المستقبل تشبه الأحداث التي ظهرت في الماضي، وبدون تأثير التعود، سوف نجهل تماما كل مسألة واقعية، غير ماثلة للذاكرة، والحواس، وسوف لن نعرف كيف هي المعرفة أو كيف نستخدم القوة الطبيعية في إحداث أي تأثير، وستكون هذه نهاية حالية للتخمين"(hume,p.73).

في حين نجد أن رسل ينتقد مفهوم هيوم عن العادة، حيث يرى رسل أن ليس من حق هيوم أن يتحدث عن عادات، أو استعدادات ذهنية، أو ليس له الحق في الكلام عن تكوينها؛ لأنه وصف الذهن بأنه مجرد تعاقب للإدراكات، ففي هذه الحالة ليس هناك ما يقوم بتنمية هذه العادات(رسل – حكمة الغرب –ج2–ص104)، ومن الجدير بالذكر أن هيوم لا يقول بوجود عقل، بل جعل العقل عبارة عن حزمة إدراكات(زكي –ص244)، وهذا ما دعا رسل للقول : أين تنمو العادات إن لم يكن هناك عقل؟، لكن هيوم لم يكن غافلا عن نفيه لوجود العقل عندما تحدث عن العادة، فهو يصر بأنه لا يعرف من أين أتت هذه العادة، ولا يعرف شيئاً عن أسبابها(هيوم 2008،ص70).

يرى رسل أن التجربة قد أظهرت لنا أن تكرار ما نشاهده من ظواهر مطرده لأكثر من مره، جعلنا نتوقع مجيئها في المستقبل معاً، حيث اعتقدنا بأن هذا الاطراد سيستمر للمستقبل، وسوف نصاب بالدهشة، إن حدث في المستقبل، و لم يأتيا معاً، فنحن أصبحنا عندما نشاهد الأول نتوقع مجيء الثاني، باعتباره علة له، وسنستغرب من تخلي المعلول عن علته(رسل 2016 ،ص67-68).

تعاقب الاحداث

يختلف رسل عن هيوم بأنه لم يبدأ رافضا للعلية مثله، بل قَبِلها، واعتبرها مبدأ نستطيع من خلاله معرفة ما سيقع من حوادث مستقبلية عن طريق حوادث ماضية، لكن من أين لنا أن نعرف أن هذه الحوادث ستأتي بعد تلك الحوادث؟، يبدو لي اننا قد عرفناها من مشاهدة مثل هذه الحوادث لمرات عديدة متبوعة بتلك الحوادث، و لذلك ربطنا بينها، وفي هذه الحالة سنكون قد اعتمدنا على الاستقراء، حتى وإن كان رسل لم يتحدث عنه بعد، ولم يصرح بأنه هو الأساس الذي قام عليه إيماننا بالعلية، إلا في حالة واحدة وهي أن رسل كان يؤمن بأن العلية مبدأ قبلي، لكنه لم يُصرح بأن العلية مبدأ قبلي.

وعلى هذا يترتب إيمان رسل بمبدأ إطراد الحوادث؛ لأنه بإيمانه بقدرتنا على أن نعرف حوادث لم تحدث بعد من ملاحظتنا لحوادث أخرى، دليل على إيمانه بأن ما شاهدناه من تتابع في الماضي، سيكون مطّرد في المستقبل، وهذا ما ساعدنا على التنبؤ بحوادث المستقبل، ولنقرأ تعريفه للعلية حيث عرفها بأنها: "ذلك المبدأ الذي بمقتضاه يمكن استنتاج حادثة أو أكثر، في لحظة جديدة أو أكثر، من عدد كاف من الحوادث، عند عدد كاف من اللحظات"(محمد قاسم 2003ص160)، ونفهم من هذا التعريف أنه لا يقصد العلية التي تترك أثر على معلولها، أو تقوم بإيجاده، بل إن تأثير هذه العلة يكون علينا نحن، فمن خلال مشاهدتنا نتنبأ بمجيء الحادثة الثانية؛ أي إن الحادثة الأولى ليست علة لإيجاد الحادثة الثانية، بل علة لجعلنا نتنبأ بمجيء الحادثة الثانية، وهذه العلية التي يتحدث عنها رسل وآمن بها، ليست هي العلية التي تحدث عنها هيوم، ورفضها، فهيوم يتكلم عن العلة التي تُوجد معلولها أو تُحدث تأثيرا أو تغيرا عليه، كتحريك الكرة الأولى للكرة الثانية أو احراق النار للورق.

في حين نجد أن هيوم يختلف عن رسل فقد بدأ رافضا لها، ومات رافضا لها، "فها هو في أيامه الأخيرة في فراش المرض حيث يزوره (جيمس بوزويل)، فيسأله: ألا تؤمن بحياة بعد الموت، وان روحك ستبقى بعد موتك؟، فيجيب هيوم: نعم من المحتمل أن تكون الروح خالدة، ومن المحتمل أنني إذا القيت قطعة الفحم هذه في نار هذه المدفأة، ألا تحترق"(لافين 2012-ص201).

لقد رفض هيوم التفسير السائد للعلية في وقته، والذي بموجبه تمارس العلة التغير على المعلول، أو تُوجده، واستبدلها بالعلية التي سوف يتحدث عنها رسل من بعده؛ أي العلية التي بواسطتها ننتقل من إدراك حادثة إلى التنبؤ بحادثة أخرى، وفي الحقيقة فإن هيوم لم يصرح بذلك، ولكن هذا ما استنتجناه من كل كلامه حول العلية، لكن هيوم لم يسمها العلية بل استبدلها باسم (العادة) حيث يقول: عندما يتحدث عن تنبأنا بوقوع ظواهر عند مشاهدة ظواهر أخرى: "إن ما يعيننا لتوقع الواحد عند ظهور الآخر، هو التعود فحسب، و قد اعتبر هذه العادة مبدأ من مبادئ الطبيعة البشرية(هيوم-2008ص70-71)، إذاً يتفق رسل، و هيوم بأن العلية، و العادة، كلا حسب التفسير الذي اعطاه لهذه المفاهيم باعتبارهما مبدأ ينتقل بواسطتهما ذهننا من مشاهدة حالة إلى التنبؤ بوقوع حالة أخرى، لكن السؤال من أين حصل عقلنا على هذا المبدأ؟، يرى هيوم أن العادة هي المبدأ الأخير الذي توصلنا أليه، ولا نستطيع أن نعرف ما سبب هذا السبب؛ أي لا نستطيع أن نعرف لماذا أصبحت لدينا هذه العادة، أو من أين أتت، أما رسل فلم يخبرنا بشيء لا بعلّة مجيئها، ولا بعجزه عن معرفة أصلها، "غير أن رسل نفسه قد تبنى بشكل، أو بآخر فكرة هيوم عن السببية معتقداً أن مفهوم السبب ليس سوى تتابع بين الحوادث، ولكنه لم يجعل العلاقة السببية تعتمد على العادة، والاقتران، كما ذهب إلى ذلك هيوم، و إنما هي تنشأ لدينا من ما أسماه القوة، والإلزام، و من ثم فالعلاقة السببية إذاً نزعنا عنها تلك القوة، و ذلك الإلزام، لم تعد سوى تعاقب زمني في تبدل الإحساسات"(نفادي 2006ص136).

"أكد رسل على أن العلاقة السببية ليست سوى تتابع بين الحوادث التي لوحظ إطرادها، فجعلناها قانونا من قوانين الطبيعة، و يرى أننا لا نستبعد فكرة القوة من العلاقة السببية؛ لأن القوة السببية، طريقة يستخدمها الإدراك الفطري في فهم الحوادث فترانا نقول مثلا: إن الناس يشيّدون المنازل، و يعبّدون الطرق، ونقصد بذلك أنهم بقوة إرادتهم كانوا سببا في حدوث ما حدث، أو أننا خلعنا أرادتنا البشرية على حوادث الطبيعة، ولا سبيل إلى فهمنا للطبيعة على حقيقتها، إلا إذا أخرجنا منها هذه الفكرة البشرية"(نفادي 2006ص136).

إن رسل يرى أن تفكيرنا يتدخل في الطبيعة عن طريق الأدراك، فيضفي عليها ما ليس فيها، فما موجود لدينا من أرادة وقوة نُلبسها للطبيعة، ونتصور أن الطبيعة لها هذه القوة التي تُحدث تأثير، وإذا أردنا أن نعرف الطبيعة على حقيقتها، فلا بد أن لا ننظر اليها بهذه النظرة الذاتية، و بهذا فإن رسل قد خالف هيوم؛ لأن هيوم رفض أن تكون ما لدينا من قوة جسدية أو عقلية، وارادة، رفض أن تكون هي السبب في اضفائنا صفة القوة على الطبيعة، وبالتالي يكون للأشياء المادية تأثير على بعظها.

إن رسل لم يخرج عن فكرة هيوم عن السببية وسواء اسمى (القوة) التي قال بها هيوم، (إلزاما)، أو غير ذلك من مصطلحات، فهو لم يخرج في الحقيقة، عن كل من سبقوه في مشايعة هيوم لمفهومه عن العلاقة السببية.

وقد اتفق الاثنين بأن كثرة تكرار و قوع الحوادث ليس دليلاً على أن هذه الحالات نفسها ستتكرر في المستقبل، لكن ما اختلف به هيوم عن رسل هو أن هيوم رفض أن يكون هناك تكرار اصلا، فالحوادث لا تتكرر نفسها، بل هذه حوادث جديدة ليست هي الحوادث التي شاهدناها سابقا، وبذلك فليس هناك فائدة مما نعتقده تكرار للحوادث، أما رسل فلم يتحدث عن عدم وجود تكرار، لكنه يرى أن التكرار لا يُعطينا يقينية في الاحكام بل تبقى احتمالية، لكن يزداد الاحتمال كلما زاد التكرار.

ويوافق رسل هيوم أيضاً، بأن مهما صادفنا من تجمعات دائمة، لا نستطيع أن نحصل على انطباع الضرورة منها، ويرى رسل انه لما كان بعض الناس عقليين فإن تأثير العادة على نفوسهم قد ضللهم، فالتجربة عودتهم على أن يرون النتائج تترتب على الاسباب، بحيث يصلون في نهاية الامر إلى الاعتقاد بأنه لابد أن يكون الامر كذلك، لكن، –والكلام لرسل– إن ما يصل اليه الناس من المستحيل أن يُبرر إذا ما تماشينا مع المنهج التجريبي لهيوم(رسل 1983 ص104).

الاطراد هو طوق النجاة

يتساءل الاثنان عن السبب الذي جعلنا نعتقد أن الحوادث التي شاهدناها في الماضي ستتكرر في المستقبل أيضاً، على ماذا نعتمد في انتقالنا هذا من وقائع مشاهدة إلى وقائع لم نشاهدها، ولم تقع بعد؟(ابراهيم 2012ص97–98)،هل أن مشاهدتنا لحالات متكررة في الماضي دليل على أنها ستحدث في المستقبل أيضاً؟(رسل 2016 ص66).لماذا على المعرفة أن تمتد إلى المستقبل؟، فإذا كان الرغيف الذي أكلته في المرة السابقة قد غذاني، فهل يلزم من هذا أن هذا الرغيف سيغذيني أيضاً أن أكلته؟، على ماذا نستند عندما ننتقل من قضية حاضرة إلى قضية في المستقبل؟، أين هو الحد الوسط الذي نستند إليه في انتقالنا من قضية إلى أخرى؟، كيف تنبأنا بأن المستقبل سيكون كالحاضر والماضي؟، لماذا نعتقد أن العلة التي أنتجت هذا المعلول الأن ستستمر للمستقبل؟(هيوم 2008ص59–63)

ويتفق الاثنان على أن مشاهداتنا المتكررة، لاقتران ظواهر معينة، جعلتنا نعتقد أن هذه الظواهر هي علل لبعضها، وهذا يُرجعنا إلى العادة التي حدثنا عنها هيوم، حيث إن اعتيادنا على مجيء ظواهر متعاقبة لأكثر من مرة جعلنا نعتقد أن بينهما علاقة علّيّة، وأصبحنا ننتظر مجيء الثانية عند مشاهدتنا للأولى؛ أي إن اطراد الحوادث هنا لا يسعف تعميمنا لمفهوم السببية، واطراد استمرارها حتى في المستقبل، إنها قفزة غير مشروعة من كلتا الناحيتين، المنطقية، والعلمية، لكن هذا هو الأمر الغريب

أننا في حياتنا العملية لا يمكن أن نتخلى عن هذا التعميم؛ إذ هي دونه تصبح حياتنا على جانب كبير من الاضطراب، ويضيف هيوم أن التشابه الذي نشاهده بين الظواهر، هو من دفع الناس إلى تعميم الحالات الماضية على المستقبل، واعتبار العلل ستنتج نفس المعلولات لكن هيوم لا يرى هناك من تشابه كما ذكرنا لمرات متعددة، كما أن رسل يضيف شيئاً آخر لم يذكره هيوم، وهو اعتقاد الناس بأن هناك قوانين موضوعية في الطبيعة هو من جعلنا نعتقد بهذا الاطراد لكن رسل لم ينكر هذه القوانين كالجاذبية، والحركة، ولكن ينكر القوانين المترتبة عليها، كدوران الارض، وغيرها، والاعتقاد بهذا الاقتران لم يكن محصوراً بالإنسان فحسب، بل شاركته به الحيوانات، فالحصان الذي اعتاد على طريق واحد في كل يوم، فستواجه صعوبة عندما تُريد أن تُسيّره بطريق آخر، والدجاج الذي تعود من صاحبه أن يُطعمه في كل يوم، فإنه سيتوقع منه الطعام، إن رآه قادماً إليه؛ لأنه قد ربط بين صاحبه، و بين الطعام، و لكن هذا الربط غير صحيح، فإن هذا الرجل الذي لطالما قدم الطعام لتلك الدجاجات، ربما سيأتي يوم فيلوي رقابها، وعندها فلا يُفيدهن الاعتقاد باطراد الحوادث، أن مجرد تكرار وقوع حادثة لأكثر من مرة، يؤدي بالإنسان، والحيوان إلى الاعتقاد بأنها ستحدث في المستقبل، فإن غرائزنا تحملنا على تخمين ذلك، لكن في الواقع حالنا ليست بأفضل من حال الدجاجات التي لويت رقابها، في اعتقادنا بأن الشمس ستشرق غدا(رسل 2016 ص68).

وهناك أمر مهم يجب الالتفات إليه، و إن الغفلة عنه هي من جعلت الفلاسفة – ولاسيما فيلسوفينا موضوع البحث– يتخبطون في البحث، ويهدرون الوقت من أجل رفض فكرة العلية، أو من أجل البحث عنها، وعندما لم يجدوها قرروا أن ليس هناك شيء اسمه العلية، و ليس هناك علة ومعلول، وانما هو التعاقب، وإن هذا التعاقب بمرور الزمن لتكرره، و كثرة مشاهدتنا له جعلنا نؤمن بالعلية، والامر هو أن هؤلاء الفلاسفة قد خلطوا بين مسألتين، وهما: مسألة العلاقة الضرورية بين العلة والمعلول، أو امتناع تخلف المعلول عن علته، وبين مسألة هل للحس، والتجربة القدرة على ادراك العلية أم لا؟، فقد خلطوا بين هذين الموضوعين سواء أكانوا يعلمون أم لم يعلموا، و في الحقيقة هم لم يأتوا بجديد عندما قالو: أن ما نشاهده في خبرتنا، هو التعاقب بين الأحداث فقط، ولم نشاهد العلية، أو الضرورة، فلا أحد يدعي أنه شاهد العلية، أو سمع صوتها، أو مسك الضرورة بيده وهذا ما وقع به هيوم أكثر من رسل فهيوم قد خلط بين هل هناك علاقة علية بين الأحداث أم لا، وبين هل نستطيع إدراكها أم لا، عندما راح يبحث عن انطباع لها بين المحسوسات، ونُريد أن نقول لهيوم: من أين عرفت أن ما لا نستطيع إدراكه يُعتبر غير موجود؟، و لماذا لم تقل بأننا لا نستطيع إدراكه، وليس لدينا علم أن كان موجود أم لا؟، ألم يرفض هيوم أن تكون لنا معرفة يقينية؟، فكيف يجزم بأن ليس هناك علية؟، "ولو أن ديفيد هيوم أخذ بنظر اعتباره حقيقة أن (العالم) يختلف عن مسألة (معرفة

العالم) لكان نقده الفلسفي أكثر فائدةً"(اير 2015–ص32)، وقد وقع رسل في الخلط نفسه عندما خلط بين هل هناك علة، وبين هل نستطيع أن نعرف العلة عندما قال: ربما هناك علل أخرى في العالم هي من أوقعت التأثير، وليس ما نعتقد أنه العلة لكن نحن لا نستطيع أن نطّلع على كل العلل في العالم، فهو في هذه الحالة لم يرفض أن تكون هناك علة لكن المشكلة تكمن في عدم قدرتنا على معرفة من هي العلة بين هذه الأشياء الكثيرة التي تملأ العالم، وهو بكلامه هذا يتحدث عن عجزنا عن إدراك العلة، وعجزنا عن إدراك العلة ليس دليلاً على عدم وجودها، لكن هيوم لم يكن يقصد أن يقول نحن لا نستطيع أن نعرف العلة ويكتفي، بل كان يقصد أن يتخذها حجة على عدم وجود علة، لكن اختلف رسل عن هيوم في حجته الأخرى، و لم يقع في الخلط عندما قال: إن هناك فاصل زمني بين العلة والمعلول، فربما يحدث شيء في هذا الفاصل الزمني يؤدي إلى عدم تحقق المعلول، وبهذه الحجة كلامه موضوعي، و لم يرتبط بقضية إدراكنا له.

ينتقد رسل هيوم في معالجته للعلية، فهي لم تكن متسقة تماما، حيث يقول رسل: إن هيوم اعتبر أن إدراكنا للارتباطات المتكررة للأحداث الحسية كوّن لدينا عادة تؤدي بنا إلى الربط بين أفكار تلك الانطباعات، فتنشأ فكرة العلية من تلك الارتباطات، لكن في الحقيقة أن الارتباطات ناشئة من فكرة العلية، و ليس العكس، فالعلية سابقة على الارتباطات، وهي سبب الارتباط، وليس العكس، فلو لم تكن هناك علية لما كان هناك ترابط(رسل 1983ص103).

لكن كلام رسل هذا لا يمكن أن يقبل به فيلسوف تجريبي كهيوم، فهو –وكما نعرف– جعل الانطباعات أول المعارف التي نحصل عليها بل هي أساس المعارف، فلا يمكن أن تكون هناك علاقات سابقة عليها، وإلا فمن أين عرفناها؟، إلا إذا كانت مبدأ فطري، وهيوم بعيد كل البعد عن القبول بوجود مبادئ فطرية، كما أن رسل قد وقع في الخلط مرة ثانية في انتقاده لهيوم هذا، فرسل هنا يتحدث عن العلية الموضوعية التي تكون سبباً للارتباطات، سواء قد أدركنا هذه الارتباطات أم لم ندركها، أما هيوم فلا يقول بوجود علية موضوعية–كما مر معنا – بل جعل قدرتنا على الإدراك هي مقياس وجود أو عدم وجود العلية، وإن عدم القدرة هذه هي السبب في رفض هيوم للعلية، والاعتماد على العادة كأساس لتولد فكرة العلية في العقل الإنساني.

وإذا كان فيلسوفينا قد خلطوا بين وجود العلية أو عدم وجودها، وبين القدرة على إدراكها، فقد وقعوا في الخلط في أمرٍ آخر، وهو عدم التميز بين مبدأ العلية، وبين قوانين العلية الجزئية، فهم لم يميزوا بين مبدأ العلية أو قانون العلية العام، وهو (لكل شيء علة)، وبين الحالات الجزئية مثل (الحرارة علة تمدد الحديد)، و(النار تحرق الورق)، فذهبوا يبحثون عن قانون العلية العام بين هذه الحوادث الجزئية، ولا نرى أن بين هذه الأشياء الجزئية شيء اسمه العلية فليس بين النار والورق المحروق بهذه النار شيء

اسمه العلية، حتى يبحث عنه هيوم ورسل، بل كل ما هناك هو تأثير من النار على الورق، ولا حاجة للبحث في التأثير عن قانون العلية، وعندما لا يجدوه يقولون: ليس هناك علية.

إن إحدى حجج هيوم على رفض العلية أنها قائمة على الاستقراء، وإن الاستقراء لا يعطي نتائج يقينية، بل ولا حتى احتمالية، لذلك فأساس العلية زائف فلا نستطيع أن نقبلها، لكن كلام هيوم هذا لا ينطبق على مبدأ العلية العام، وهو أن لكل شيء علة، فهذا المبدأ لا يتم الوصول إليه بالاستقراء، بل جعله العقليون من المبادئ القبلية، لكن هيوم هنا يتحدث سواء أكان يعلم أم لا يعلم عن العلية القائمة بين حادثتين كالعلية بين النار واحتراق الورق، وكما قلنا ليس هناك شيء اسمه علية بين الحوادث الجزئية، بل ما موجود هو التأثير فقط، فما نجده هو النار، وهي العلة، واحتراق الورق، وهو المعلول، وليس هناك شيء اسمه العلية، فهيوم بحصره الموجود بما هو مدرك، راح يبحث بين الظواهر الجزئية لعلهُ يجد العلية بينها، ولما لم يجدها قال: انها غير موجودة، ونحن هنا ليس بصدد إثبات أن العلية موجودة، أو غير موجودة، ولكن أردنا أن نبيّن خطأ الفلاسفة بالبحث عن شيء كلي بين أشياء جزئية.

رفض العلية لا يعني الخلاص منها

رَفَضَ هيوم العلية بعد أن عمل على تهديم أساسها، واعتبرها عادة للناس العاديين، –وليس الفلاسفة–، نتيجة لتكرار ما شاهدوه من تعاقب بين الظواهر، و بعد كل هذا الرفض، عليه أن يكون هو أول من يطبق هذا الكلام .

لكننا نجده بتعريفه للعلية لم يتخلص منها، وفي الحقيقة نستغرب من هذا التعريف الذي لا ينسجم مع كل كلام هيوم عن العلية، ولم نجد له مخرجاً أو تأويلاً، ولا نعلم إن كان يقصد غير الذي يظهر من التعريف، فهو الذي يكرر دائما بأن العلية ليست أكثر من اقترانات دائمة، شيء يتبعه شيء آخر، لكنه عندما يُعرّف السبب بأنه شيء يتبعه شيء آخر، وحيث كل الأشياء الشبيهة بالشيء الأول تتبعها أشياء شبيهة بالشيء الثاني، ثم يضيف، و يقول: أو بكلمات أخرى، بحيث إنه إذا لم يوجد الشيء الأول لم يكن الثاني البته(هيوم2008–ص111)، لكن عبارته الأخيرة ليست إعادة صياغة للعبارة الأولى كما يقول هو، فالعبارة الأولى تنص على أن كل حالات (أ) تتبعها حالات (ب)، لكن العبارة الثانية تتضمن صيغة الشرط؛ أي إن الحادثة الثانية لا يمكن أن تحدث إذا لم تكن الأولى موجودة قبلها(كوتنغهام 1997–ص95)، وهنا هيوم لا يتحدث عن مجرد اقترانات بين الأحداث، بل يتحدث عن علاقة ضرورية بينها، فلا توجد الحادثة الثانية إلا بوجود الأولى ، وإذا وجدت الحادثة الأولى، فمن غير الممكن أن لا تأتي الثانية، فهنا قد جعل الحادثة الثانية معلولة للأولى ضرورةً.

ولو أردنا أن نجد تبريراً لقول هيوم لقلنا: ربما كان يقصد من التعريف العلية التي يفهمها الناس العاديون، و ليست العلية التي يرفضها هو، ولا أعلم ما مدى توفيقي بهذا التأويل.

لكن رسل يرى "أن هيوم كان في كثير من الأحيان ينزل سهواً إلى أساليب الحديث العادي عن الأشياء، في الوقت الذي كانت دواعي الدقة تحتم عليه أن يقتصر في نظريته على الحديث عن الأفكار فحسب"(رسل 1983 ص103)، و لو تماشينا مع ما يراه رسل لكان كلام رسل جواب لكثير من الشبهات التي ترد على هيوم من حيث إنه يناقض نفسه، ومنهجه.

ومن بين الأقوال التي ينتقد بها رسل هيوم هو قول هيوم : إن الأغلاط في الدين خطيرة، لكن الأغلاط في الفلسفة تثير الضحك فقط، ورسل لا يقبل هذا القول من فيلسوف يشك بالعلية، فإن كلمة (خطيرة) تدل على علة، والذي يشك في العلة ليس بمقدوره أن يعرف شيئاً عن (خطيرة)، فهيوم يناقض نفسه في قوله هذا(رسل 2012 ص234).

وقد وجدنا في أماكن عديدة عند هيوم كلام نستطيع أن نفهم من خلاله أن هيوم يتحدث عن الأسباب، وتأثيراتها؛ أي هو يقر بوجود أسباب أو مؤثرات ، لكن المشكلة تكمن في ضعفنا عن إدراك هذه الأسباب، والقوى الخفية الموجودة في الأشياء ، فهو القائل: "الطبيعة قد أبقتنا على مسافة كبرى من أسرارها، وإنها قد أعطتنا فقط معرفة بعض الخصائص السطحية عن الأشياء، في حين تخفي عنا القوى، والمبادئ التي يخضع لها تأثير تلك الأشياء خضوعا تاما، ويرى هيوم : أن هناك خاصيات خفية في الأشياء، هي التي تُحدث التأثيرات في الأشياء الأخرى ، لكن العقل، والحواس لا يمكنهما أن يعلّمانا بهذه الخاصيات، فنحن "نجهل الطريقة التي بها تفعل الأجسام بعضها في بعض ، فقوتها أو طاقتها غير مفهومة على الاطلاق"(هيوم 2008ص58-59)، و يرى هيوم أننا حتى لو أستعنى بالهندسة فإنها غير قادرة على إيصالنا إلى معرفة الأسباب الأخيرة(هيوم 2008ص106)، ولا نستطيع أن نعرف طبيعة الأجسام من خبراتنا الماضية فإن طبعتها خفية، ولا يمكننا إدراكها ، ولا نعلم أن تبدلت هذه الطبيعة ، وبتبدل طبيعتها الخفية ستتبدل تأثيراتها ، إذاً خبرتنا الماضية لا نستطيع الاعتماد عليها من أجل تكوين معرفة عن تأثيرات الأشياء، فإن الأنسان عاجز، وضعيف، وهذا ما تدل عليه كل الفلسفات، حيث يرى هيوم أن حصيلة كل الفلسفات هي عمى الأنسان، وضعفه، وان هذا الضعف، والعجز عن إدراك الأسباب، والقوة المؤثرة، والطريقة التي تؤثر بها الأشياء على بعضها البعض ، كل هذا جعل الأنسان يلجأ إلى التشابه ليتنبأ به عن الأحداث التي لم تقع بعد، على أساس أنها مشابهة للأحداث التي شاهدناها سابقا، وأنها ستعطي نتيجة مشابهة لتلك(هيوم 2008ص56-59).

من خلال كل ما سبق ألا نستطيع أن نفهم أن هيوم لا ينكر وجود أسباب، ومؤثرات، وقوى خفية في الأشياء، هي سبب التأثير في الأشياء الأخرى، لكن المشكلة تكمن في أن الأنسان عاجز عن إدراك هذه الأسباب، والقوى الخفية؟

و يرى رسل: إن من يريد أن ينتقد هيوم بأن الحياة، والمعرفة لا يمكن أن تسير إلى الأمام بدون الإقرار بالعلية، ويبحث عن حجج ليفنّد كلام هيوم عن العلية، من يفعل هذا، سيكون كلامه مدعاةً للضحك؛ لأن هيوم بعد أن عرض موقفه الشكي من العلية، صرح بأن هذا لا يؤدّي إلى الوقوف بوجه الحياة العملية، فإن الطبيعة قد حتمت علينا إصدار أحكام تماماً كما نتنفس، ونشعر، ويرى أن اللذين يجهدون أنفسهم لتفنيد ما وصل إليه، فهم يدخلون في نزاع لا يعارضهم فيه أحد؛ أي أنهم يتصورون أنهم يدخلون في معركه، لكن ما لا يعرفونه أنه ليس هناك خصم لهم، فحتى هيوم نفسه لم يكن ضدهم

لكن رسل نفسه ينتقد هيوم بسبب تخليه عن شكوكه عندما يتحدث في الجانب الأخلاقي، على الرغم من دفاعه عنه قبل قليل، حيث يقول رسل : "والواقع أن هيوم ينسى في الأقسام الأخيرة من كتابه (رسالة في الطبيعة البشرية) كل شيء حول شكوكه الأساسية، ويكتب كثيرا مثلما كان يمكن لأي مفكر أخلاقي مستنير في أبناء عصره أن يكتب، وهو يداوي شكوكه بالدواء الذي يوصي به، اعني (الاهمال، وعدم الانتباه). أن شكيته، هي بمعنى شكية لا جد فيها، ما دام لا يستطيع أن يحافظ عليها في الحياة العملية، وكان لها مع ذلك هذه النتيجة الخرقاء، وهي انها تشل كل مجهود لإثبات أن خطأً من خطوط الفعل افضل من الآخر"(رسل 2012ص234).

وقد تساوى رسل مع هيوم على الرغم من جهده الكبير للتخلص من العلية، وبحثه الطويل لإيجاد بديلا لها، لكنه لم يستطع التخلص منها هو الآخر، فبعد أن تخلى عن المبدأ الاستقرائي جاء بالاستقراء البرجماتي، وبالاستقراء البرجماتي سنقبل القوانين العلية قبولا برجماتيا أيضاً. ثم جاء بالمصادرات التي أرادها أن تكون مبادئ للمعرفة، وبدائل للعلية التي اعتبرها من الأسماء الغامضة، لكن عند الرجوع لمصادراته نجده لم يستطع التخلص من العلية.

و قبل الدخول في تتبع العلية في المصادرات، نود أن نذكر مرةً أخرى بأن العلية التي يتحدث عنها رسل في كتاباته المتأخرة ليست العلية التي يتحدث عنها هيوم، ففي المصادرة الأولى جعل الحادثة الأولى علة في أغلب الأحيان لتدلنا على الحادثة الثانية التي تكون مجاورة لها في المكان، والزمان. وفي المصادرة الثانية مصادرة الخطوط السببية كان كلامه واضحاً عن العلية فنحن نستطيع أن نستدل من عضو على عضو آخر؛ أي نستطيع أن نتنبأ من مشاهدتنا لعضو على وجود العضو الآخر من دون أن نشاهده، نعم لقد قبل رسل هذه الصورة من العلية لينقذ المعرفة من الضياع، فهو يخبرنا إذا لم نعمل بهذه الطريقة، فلن نستطيع

أن نخطو خطوة واحدة بالمعرفة، والقوانين العلمية، وكما ذكرنا فيما مضى فإن رسل لم يقف مكتوف الأيدي كسلفه هيوم بل كان دائما يبحث عن حلول بعد عدم ثقته بالاستقراء، والعلية. أما المصادرة الثالثة فنجد فيها العلية بنوعيها التقليدي، والذي تحدث بها رسل، فهو يتحدث عن التأثير السببي بين شيئين، وهذا اعتراف بأن هناك تأثيراً بين الأشياء على بعض، اما النوع الثاني فيتمثل في استدلالنا على الحلقات المتوسطة التي لم نشاهدها من خلال الأطراف المشاهدة، فنحن نستدل على أشياء من خلال أشياء اخرى. أما المصادرة الرابعة فتتحدث عن الخطوط السببية التي تربط حوادث متشابهة بحادثة تكون هي سبب تجمعها. أما المصادرة الخامسة فهي قانون علّيّ صريح جاء نتيجة للاستقراء، فنحن نتيجة لكثرة مشاهدتنا لحادثتين متلازمتين أصبحنا نستدل من مجيء إحداهما على الثانية، حتى ولو لم نشاهد الثانية.

لقد كان رسل يرى أن العلم سيصبح مستحيلا إذا اكتفينا بالمعارف التي نحصل عليها بالخبرة المباشرة فقط، وكذلك الكثير من المعارف التي لا نشك فيها، وستنحصر معارفنا على ما ندركه مباشرة(رسل 2012 ص244)، – وهو كما كان هيوم يرمي من وراء قوله بأولية الانطباعات في تشكيل المعرفة – و لم يريد رسل للمعرفة أن تقف عند هذا الحد؛ لأنها ستكون غير ذي فائدة لنا إذا اكتفينا بالمشاهدات، و بما يمكن التحقق منه فقط، وهذا ما أوصلنا أليه هيوم، وأوقفنا عنده، ولم يساعدنا على عبوره.

وبعد أن شخص رسل علة الاستقراء، و مشاكله، ولاحظ نواحي القصور في المنهج العلمي، وما يواجه المذهب التجريبي من مشاكل في المنهج الذي يسير عليه انتهى إلى انه لابد من أن نجد مبادئ لا تركن للخبرة، ولا تُثبتها التجارب بل تكون سابقة عليها(محمد قاسم 2003 ص254).

هناك أمر آخر دفع رسل للبحث عن مبادئ جديدة، ألا وهو التخلص من العلية التي يعتبرها شيء غامض فأراد أن يأتي بأشياء محددة، واضحة، و السؤال هنا هل نجح رسل في التخلص من العلية، والمجيء بمبادئ قبلية لا تركن للخبرة كما أرادها، و تكون كبداية تنطلق منها معارفنا، و قد جاءنا رسل بمصادراته الخمس التي يعتبرها، واضحة، وسابقة على التجربة ليتخلص من العلية، ومن المعرفة غير اليقينية، القائمة على الاستقراء، وفي هذه المرحلة لم يعد رسل يتحدث عن القبول البرجماتي للاستقراء، ونريد أن نناقش هل كان رسل على صواب في ادعائه؟، عن طريق عرض مصادراته على منهج هيوم في المعرفة.

1 – إن هذه المبادئ ليست سابقة على التجربة، فرسل قد جاءنا بها نتيجة لاطلاعه على حالات في الواقع، وهذا ما يذكره هو حيث يقول: "وقد حاولت – عن طريق جمع أكبر قدر يمكن أن يخطر لي من الحالات التي تبدو لنا فيها الاستدلالات غير البرهانية غير قابلة للشك – أن اكتشف بالتحليل ما هي تلك المبادئ المجاوزة لنطاق المنطق التي لا بد أن تكون صادقة

بالضرورة إذا لم نكن مخطئين في مثل تلك الحالات"(رسل 2012 ص247)، اذاً مصادرات رسل قائمة على حالات قد شاهدها في الواقع، وفي هذه الحالة إذا كانت كل مصادرة قائمة على حالات متعددة، ففي هذه الحالة أصبحت قائمة على الاستقراء، فيصبح الاستقراء سابق على المصادرات، ورسل لا يُريد ذلك، فهو ما جاء بالمصادرات إلا لعدم ثقته بالاستقراء، وكذلك هيوم كما ذكرنا ذلك مرارا كان رافضاً للاستقراء، أما اذا كانت كل مصادرة قائمة على حالة واحدة فهي إذا قائمة على التجربة، ولكن على ماذا تقوم هذه التجربة الأولى؟، هل على المصادرة نفسها، وهنا سنقع في الدور، أم على تجربة أخرى، وهكذا إلى ما لا نهاية، وسنقع عندها في التسلسل، في كلتا الحالتين نجد هناك تجربة سابقة على المصادرة، ورسل أراد من المصادرات أن تكون سابقة للتجربة، وهيوم لا يعتبر التجربة مصدراً لتكوين قانون العلية، ولا يقبل بمعرفة سابقة على التجربة، بل أن كل قوانيننا قائمة على العادة النفسية للإنسان.

2- نريد أن نطرح هذا السؤال، وهو على ماذا أعتمد رسل في اختياره للحالات التي أشتق منها مصادراته؟، ويُجيبنا رسل بأن هذه "الحالات الجزئية واضحة كل الوضوح" ، و إذا كانت واضحة بذاتها، ولا تحتاج إلى برهان فهي إذا بديهية، لكن رسل كهيوم يرفض وجود بديهيات، لكن لنتابعه وهو يضرب لنا مثل عن الحالات الواضحة، وهذا المثل يقول: " كل الأعداد التي لم أفكر فيها مطلقا، ولن أفكر فيها مطلقا، مقدارها أكبر من الف"(رسل –2012 ص254). نعم صحيح أن هذه ليست بديهية لكنها أعادة صياغة للبديهية(الكل أكبر من جزئه).

4 – جاء رسل بمبدأ الاستقراء في كتاباته المتقدمة ثم تخلا عنه، ثم جاء بالاستقراء البرجماتي ثم تخلا عنه هو أيضاً، لكن من ينظر إلى مصادراته فسيجدها بخلاف ما أراد فإن صبغتها الأولانية، وعدم القدرة على البرهنة عليها لم تفرقها عن المبدأ الاستقرائي، فهو كذلك كان أولاني، ولا يمكن البرهنة عليه، وهذا يدل على أن رسل لم يستطع التخلص من المبدأ الاستقرائي أو أي مبادئ أولانية، اما الشيء الثاني فهو أن ما يبرر صدق المصادرات هو: نتائجها التي يمكننا أن نتحقق منها في الواقع عن طريق التجربة هي تلك التي تحققها التجربة(كوبلستون 2009،ص657)، وبهذا فقد رجعنا إلى القبول البرجماتي، فإنها لو خالفة الواقع لما تمسكنا بها، وبالتالي فإن رسل لم يتخلص من قبول الاستقراء برجماتيا أيضاً.

هناك من يرى " إن الاستدلالات التي تبررها المصادرات هي وليدة تصور خاص برسل وحده عن العالم الخارجي كما يفهمه من العلم، فما هي الأسباب التي تدعونا لقبول هذه التصورات عن العالم دون غيرها، ... أن إحدى مشكلات فلسفة العلم هي البحث عن أفضل تصور عن العالم يطابق العلم، وتصور رسل الذي يبني عليه مصادراته، واحد من هذه التصورات إلا أنه ليس

أفضلها بالطبع، والدليل على ذلك أن رسل نفسه قد اقترح عدة بدائل لتفسير العالم في مراحل تطوره المختلفة"(محمد قاسم 2003،ص268).

إن رسل على الرغم من سعيه المستمر من أجل التخلص من العلية التي أعتبرها من التراث البائد لكنه لم يستطع التخلص منها.

لقد كان رسل يفعل كل ما بوسعه لتجنب الضياع في الشك على العكس من هيوم الذي بقي موحلا به في تفكيره الفلسفي، على الرغم من دعوته لنا بأن نهمله لكن هذا في حياتنا العملية، وليس اثناء التفلسف، بل وصل بهيوم الامر إلى القول : "ان ليس هناك داع للتفلسف، اللهم إلا أن هذه الدراسة بالنسبة إلى بعض الامزجة هي طريقة سائغة لتمضية الوقت، وفي جميع أحداث الحياة ما برح ينبغي لنا أن نحافظ على شكيتنا، فإذا اعتقدنا ان النار تدفئ أو أن الماء يُنعش، فما ذلك إلا لأن الأمر يتقاضانا آلاما مبرحة لو فكرنا تفكيرا مباينا"(رسل –2012ص223).

المراجع والمصادر

– ابراهيم، د. ابراهيم مصطفى :– منطق الاستقراء – المنطق الحديث . (د. ط) . المعارف – الاسكندرية.1999.

– الاهواني، د. احمد فؤاد:– في عالم الفلسفة. (د. ط). مكتبة النهضة المصرية– القاهرة . (د. ت).

– اير، الفريد جولسن – ديفيد هيوم. ترجمة وتقديم: د. سامي عبد الوهاب عبد الحميد. ط1. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر– الاسكندرية. 2015

برتراند رسل– تاريخ الفلسفة الغربية. (د. ط). ج2–3. الهيئة العامة المصرية للكتاب– مصر. 2012.

– برتراند رسل حكمة الغرب. ترجمة: د. فؤاد زكريا.(72) . ضمن سلسلة عالم المعرفة. (د. ط). المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب– الكويت ج2. 1983

برتراند رسل – فلسفتي كيف تطورت. ترجمة وتصدير: عبد الرشيد صادق محمودي. مراجعة وتقديم: زكي نجيب محمود. د.ط . المركز القومي للترجمة – القاهرة. 2012

برتراند رسل – مشكلات الفلسفة. ترجمة: سمير عبده. ط1. دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر– سوريا. 2016

– قاسم، د. محمد محمد :– برتراند رسل – الاستقراء ومصادرات البحث العلمي ضمن سلسلة فلاسفة العلم. (د.ط). دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية. 2003

– كوبلستون، فردريك :– تاريخ الفلسفة. ترجمة: محمود سيد احمد. مراجعة وتقديم: إمام عبد الفتاح امام. . مج8–5– المشروع القومي للترجمة،ط1. المركز القومي للترجمة– القاهرة،2009 .

- كوتنغهام ، جون :- العقلأنية فلسفة متجددة . ترجمة : محمود منقذ الهاشمي . ط1 . مركز الأنماء الحضاري – حلب . 1997

- محمود ، د. زكي نجيب :- قصة الفلسفة الحديثة. ضمن السلسلة الفلسفية.(د. ط). مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة. 1936

- نفادي، السيد :- السببية في العلم وعلاقة المبدأ السببي بالمنطق الشرطي. ط1. دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت. 2006

- لافين. ت. ز :- من سقراط الى سارتر – البحث الفلسفي . ترجمة: اشرف محمد كيلأني. مراجعة وتقديم: سعيد توفيق. ضمن المشروع القومي للترجمة. ط1. المركز القومي للترجمة – القاهرة. 2012.

- هيوم، ديفيد :- رسالة في الطبيعة البشرية. ط1. نقله الى العربية: عبد الكريم ناصيف. دار الفرقد- دمشق. 2016

هيوم ، ديفيد – مبحث في الفاهمة البشرية. ط1. ترجمة: د. موسى وهبة. دارالفارابي – بيروت 2008

- David Hume- Enquiries concerning Human Understanding, Third Edition, L, A, Selby- Bigge, .Oxford, Universtu, press, 1978

*□ لودفيج فتجنشتاين: فيلسوف نمساوي ولد في 1889 ،كانت اهتماماته منصبة في فلسفة اللغة، له كتابين في فلسفة اللغة، ففي الكتاب الأول كان يرفض المفاهيم التي ليس لها وجود واقعي محسوس، اما في كتابه الثاني فقد غيرَ منهجه واصبح لا يقول بوجوب أن يكون للمفهوم وجود واقعي لكي نقبله، بل أن معنى أي مفهوم يكون بحسب استخدامه بين الناس، ولذلك فالباحثين عندما يتناولون فتجنشتاين يقسمونه إلى فتجنشتاين الأول، وفتجنشتاين الثاني.

Refrnce:

Ibrahim, Dr. Ibrahim Mustafa: - The logic of induction – modern logic- Alexandria 1999

Al-Ahwani, Dr. Ahmed Fouad: - In the world of philosophy.. The Egyptian Renaissance Library - Cairo.(.

-Eyre, Alfred Goulsen-David Hume. Translation and submission: Dr. Sami Abdel-Wahab Abdel-Hamid. I 1. Dar Al Wafaa for the World of Printing and Publishing - Alexandria. 2015

Bertrand Russell - A History of Western Philosophy. V.2-3. The Egyptian General Book Authority - Egypt. 2012.

Bertrand Russell- the Wisdom of the West. Translation: Dr. Fouad Zakaria (72). Within the world of knowledge series. (Dr. i). The National Council for Culture, Arts and Letters - Kuwait Part 2. 1983

Bertrand Russell – How my philosophy evolved. Translation and export: Abdul Rashid Sadiq Mahmoudi. Reviewed and presented by: Zaki Naguib Mahmoud. D. The National Center for Translation – Cairo. 2012

Bertrand Russell – The Problems of Philosophy. Translation: Samir Abdo. I 1. Dar Al Takween Authorship, Translation and Publishing – Syria. 2016

Qasim, Dr. Muhammad Muhammad: – Bertrand Russell – Induction and confiscations of scientific research within the series of Philosophers of Science. (D). University Knowledge House – Alexandria. 2003

Cobblestone, Frederick: A History of Philosophy. Translation: Mahmoud Syed Ahmed. Reviewed and presented by: Imam Abdel Fattah Imam. . MG 8-5- The National Project for Translation, 1st Edition. The National Center for Translation – Cairo, 2009.

Cottingham, John: Reason is a renewed philosophy. Translation: Mahmoud Munqith Al-Hashemi. I 1. Cultural Development Center – Aleppo. 1997

Mahmoud, Dr. Zaki Naguib: The story of modern philosophy. Within the philosophical series. (D. i). Committee of Authoring, Translation and Publishing Press – Cairo. 1936

–Nafadi, al-said: – Causality in science and the relationship of the causal principle to conditional logic. I 1. Dar Al-Tanweer for printing, publishing and distribution – Beirut. 2006

Lavigne. T. G: – From Socrates to Sartre – Philosophical Research. Translation: Ashraf Muhammad Kaylani. Reviewed and submitted by: Saeed Tawfiq. Within the national project for translation. I 1. The National Center for Translation – Cairo. 2012.

Hume, David: A Treatise on Human Nature. I 1. Transferred to Arabic: Abdul Karim Nassif. Dar Al Farqad – Damascus. 2016

Hume, David – Study on human understanding. I 1. Translation: Dr. Moussa WHeba. Dar Al-Farby – Beirut 2008

David Hume- Enquiries concerning Human Understanding, Third Edition, L, A, Selby- Bigge, Oxford, Universtu, press, 1978.